تمتمات

حول تربية النفس على تعظيم النصوص والأحكام الشرعية

د. صغير بن محمد الصغير

شبكة الألوكة
www.alukah.net

تمتمات حول تربية النفس على تعظيم النصوص والأحكام الشرعية

صغيّر بن مُحَمَّد الصغيّر

شبكة الألوكة
www.alukah.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

رب يسّر و أعن وبارك يا كريم

بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه..

فتلك كانت خطبة.. فخطبتان.. فولدت وريقات..

في يوم هادئ من أيام المدينة النبوية على عهد رسول الله ﷺ يُلّح عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ربه داعياً، «**اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ**»، فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي البَقَرَةِ: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ**﴾(١)، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ**»، فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي النِّسَاءِ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى**﴾(٢)، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ**»، فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي المَائِدَةِ: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ**

(١) [البقرة: ٢١٩].

(٢) [النساء: ٤٣].

بَيْـنَكُمُ العَـدَاوَةَ وَالبَغْضَـاءَ فِي الخَمْـرِ وَالمَيْسِـرِ﴾[1] - إِلَى قَوْلِـهِ - ﴿فَهَـلْ أَنْـتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[2]، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: «انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا»[3].

ويحدّث أَنَسُ ﷺ، كُنْتُ سَاقِيَ القَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الفَضِيخَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِي: «أَلاَ إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ» قَالَ: فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ، فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَتْ فِي سِكَكِ المَدِينَةِ، فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: قَدْ قُتِلَ قَوْمٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾[4] الآيَةَ[5].

وفي أمر آخر يروي ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ مُغِيثًا كَانَ عَبْدًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْفَعْ لِي إِلَيْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بَرِيرَةُ اتَّقِي اللَّهَ، فَإِنَّهُ زَوْجُكِ وَأَبُو وَلَدِكِ»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْمُرُنِي بِذَلِكَ، قَالَ: «لَا، إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ فَكَانَ دُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى خَدِّهِ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ: «أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَبُغْضِهَا إِيَّاهُ»[6].

---

(١) [المائدة: ٩١].

(٢) [المائدة: ٩١].

(٣) **صحيح**؛ صححه الألباني في "صحيح وضعيف الترمذي"(٣٠٤٩).

(٤) [المائدة: ٩٣].

(٥) **متفق عليه**؛ أخرجه البخاري(٢٤٦٤)، ومسلم(١٩٨٠).

(٦) **صحيح**؛ صححه الألباني في "صحيح وضعيف سنن أبي داود"(٢٢٣١).

تعظيم عمر ﷺ بقوله انتهينا انتهينا، وتعظيم الصحابة رضي الله عنهم للحكم الشرعي حتى سالت سكك المدينة من الخمر، وسؤال بريرة ﷺ أتأمرني؟ ولو كان الجواب بالإيجاب لسارعت بالامتثال لأمره ﷺ.. كُلّ ذلك يدل على عظمة الحكم الشرعي داخل نفوسهم ﷺ وأرضاهم .

ثمّ لننظر أيضاً في قصة أخرى كيف تصرف أبو بكر ﷺ عندما عَلِم أنّ مالاً حراماً دخل جوفه، مع أنّه معذور لو تركه !! كان ﷺ ورعاً في ذلك تمام الورع، جاءه غلامه يوماً بشيء فأكل منه؛ فقال الغلام: أتدري من أين جئت به؟ قال أبو بكر: من أين؟ فقال الغلام: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة، فاحتلت عليه، فأعطاني بذلك أي أجرة، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر ﷺ يده فأخرج ما في بطنه، وقال: والله لو لم تخرج إلا مع روحي لأخرجتها.. إنّ رسول الله ﷺ يقول: «**كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ**»(١).

ويتكلم ابن الجوزي عن نفسه فيقول رحمه الله: وما زلت أغلب نفسي تارة وتغلبني تارة، فخلوت يوماً بنفسي فقلت لها: ويحك اسمعي أحدثك إن جمعت شيئاً من وجه فيه شبهة، أفأنت على يقين من إنفاقه؟ قالت: لا.. قلت لها: فالمحنة عند الموت أن يحظى به غيرك ولا تنالين إلا الكدر العاجل والوزر، ويحك اتركي هذا الذي يمنع الورع لأجل الله، أَوَمَا سمعت أن من ترك شيئا لله عوضه الله خير منه. وقال:

---

(١) **صحيح**؛ صححه الألباني في الجامع الصغير"(٤٥١٩)، أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء"(٣١/١)، والبيهقي في "شعب الإيمان"(٥٣٧٦).بمعناه.

وجدت رأي نفسي في العلم حسنا إلا أني وجدتها واقفةً مع صورة التشاغل بالعلم فصحت بها: فما الذي أفادك العلم؟ أين الخوف؟ أين الحذر؟ أَوَمَا سمعت بأخبار الصالحين في تعبدهم واجتهادهم.. أَوَمَا كان الرسول ﷺ سيد المرسلين ثم قام حتى تورمت قدماه؟ أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجي النشيج كثير البكاء؟ أما كان في خد عمر رضي الله عنه خطان من آثار الدموع؟ (١).

إنّ مما يؤلم في هذا العصر هذا التيه والزخم عند الكثير منّا ومحاولة التبرير للنفوس بإتيان المحرمات، وكثرة التأويل المذموم للنصوص !! ، بل والتجرؤ على تحليل الحرام والسعي إليه لموافقة الهوى !!

إن تربية النفس على الامتثال وتعظيم النصوص والأحكام الشرعية، من صفات المؤمنين الصادقين: ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**﴾(٢).

(١) صيد الخاطر (ص ٢٤٨).

(٢) [الحج: ٣٠].

(ومن يعظم حرمات الله) أي: معاصي الله وما نهى عنه، وتعظيمها ترك ملابستها. قال الليث: حرمات الله ما لا يحل انتهاكها. وقال الزجاج : الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه(١).

فيا تُرى كيف نربي أنفسنا وأجيالنا على تعظيم النصوص والأحكام الشرعية؟

كيف نربي أنفسنا وأجيالنا على سرعة الامتثال، والاستجابة لله ولرسوله ﷺ؟

كيف نربي أنفسنا ونحفظها عن الحرام؟

كيف نكون ممن قال الله فيهم: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا**﴾(٢)؟

أخي الكريم: إنّما يكون ذلك بتعظيم الأمر، وتعظيم الآمر، والتصديق بالجزاء(٣).

(١) تفسير البغوي (٣/٣٣٨).

(٢) [الأحزاب: ٣٦].

(٣) انظر: مدارج السالكين (١/ ٢٠٢).

وتعظيم الأمر: يكون باستحضار تحريم الجناية وأنّه صادر من الله تعالى، وأن الله تعالى بين ذلك في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ، فيعلم أن هذا التحريم شأنه عظيم، وخطره كبير، وأنه لا ينبغي لعاقل أن يستهين به.

وتعظيم الآمر: يكون باستحضار عظمة الله تعالى، وأنه الجبار المنتقم، لو شاء أن يؤاخذ الناس بذنوبهم لما ترك على ظهر الأرض من دابة، وأنه سبحانه الملك العظيم القدوس، وأنه الرب الكريم المنعم المتفضل، فلا يليق بالعبد أن يعصيه، ولا أن يستعمل نعمه في مخالفته.

ولهذا قيل: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

وكلما زاد تعظيم العبد لربه، استحيا منه، وانكفّت نفسه عن معصيته.

والتصديق بالجزاء: أن يوقن العبد بما رتب الله على المعصية من جزاء في الدنيا والآخرة، كأنه يرى ذلك رأي العين، فيعلم أن جزاءها النار، وأن النار لا يُقدر على حرها، وأن غمسة واحدة فيها تنسيه كل لذة ونعيم في الدنيا، فلا خير في لذة يعقبها النار.

ويعلم أن من جزاء المعصية: الحرمان من القرب من الله تعالى، وما أعظمها من عقوبة.

ومن جزائها: تعسير أمر العاصي، وتنكيد عيشه، وقسوة قلبه، وشعوره بالوحشة، وإصابته بالذل، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : "إن للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وقوةً في البدن، وزيادةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق.

وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق"(١).

أيها الأخ المبارك: إن استشعارك لعظمة الخالق الذي بيده تصريف أحوالك بل بيده ملكوت الكون كله سبحانه وبحمده -وغرس ذلك في نفوس من تعول من أبناء وتلاميذ ومحبين -واستشعارك أيضاً لخطورة مخالفة أوامره، وعظم عقوبة فعل تلك المخالفة، أو المعصية كفيل بعض أصابع الندم على كل ما صدر منك تجاه المنعم والمتفضل عليك سبحانه، ومن المعين بإذن الله على ذلك مع ما سبق ما يلي:

أولاً: الاستعانة بالله تعالى، والالتجاء إليه، وكثرة دعائه واستغفاره. والمتأمل في حال نبينا ﷺ مع أنّه نبي عليه الصلاة والسلام يرى عجباً، تشفق عليه عائشة رضي الله عنها فتقول له: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا**» متفق عليه(٢).

---

(١) من موقع الإسلام سؤال وجواب على الرابط: http://v.ht/a0sY، كما نقل أثر ابن عباس رضي الله عنهما ابن تيمية رحمه الله، انظر "الاستقامة"(١/٣٥١-٣٥٢).

(٢) **متفق عليه**؛ أخرجه البخاري(٤٨٣٧)، ومسلم(٢٨٢٠).

ثانياً: المداومة على عبادة التفكر بعظمة الله تعالى، وعظمة مخلوقاته سبحانه. واستحضار ذلك في كل وقت وحين ..: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[1].

ثالثاً: كثرة فعل الطاعات والمداومة عليها بإخلاص وجعل ورد يومي بذلك وتنويعها ، فإنّ هذا مما يثبت الإيمان ويقويه، وملء الفراغ بما يرضي الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

رابعاً: ترك الأماكن والمواقع التي تذكرك بالمعصية، أو تجلب عليك فتنة، وما أكثرها في زماننا سواء كانت مواقع شبهات كتلك العقائد والأفكار المنحرفة التي تنشر في كل حين وتزخر بها المنتديات والقنوات ، أو مواقع شهوات كاختلاط محرم وغناء

(١) [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٤].

ماجن ونحو ذلك .. فعن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ ﷺ أنّه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ**»(١).

قال أهل العلم: وهذا يؤكد على كل مسلم الابتعاد عن أي موطن فتنة أو معصية.

خامساً: التزام الصحبة الصالحة وترك صحبة السوء، وحضور مجالس العلم والصالحين في عالمنا الحسيّ ، أو حتى في وسائل التواصل والعالم الافتراضي، فإنّ القدوة الحسنة لها أثر كبير في تعظيم الواجبات داخل النفوس ..

أخي القارئ الكريم: يتعذر بعض من ابتلي بعدم الامتثال للحكم والنص الشرعي بأنّ الأفهام تختلف، وأن عقله وإدراكه لا يفهم ما يفهم غيره وأنّ فهمه سابق على فهم غيره ، وفي بيان بطلان هذه الشبهة يُقال:

إن صحَّة فَهمِ النصوص الشرعية ركيزة أساسية لصحَّة الاستِدلال، ولا يَستطيع المرء أن يَعرف مراد الله –سبحانه وتعالى– ومُراد رسوله ﷺ إلا حينما يستقيم فَهمُه لدلائل الكتاب والسنَّة، بل إن كثيرًا من البدع والضلالات لم تَحدُث إلا بسبب سوء الفهم.

---

(١) **صحيح**؛ صححه الألباني في "صحيح الجامع"(٦٢٩٩)، أخرجه أبو داود(٤٣١٩)، وأحمد(١٩٨٧٥)، وغيرهما.

قال ابن القيم رحمه الله: "صحَّة الفَهمِ وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، بل ما أُعطِي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامُه عليهما، وبهما يأمن العبد طريقَ المغضوب عليهم الذين فسد قصدُهم، وطريقَ المغضوب عليهم الذين فسَدت فُهومهم ويَصير من المنعَم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقُصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا الله أن نَسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل صلاة.

وصحَّة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميِّز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغيِّ والرشاد، ويمدُّه حسن القصد وتَحرِّي الحق والصواب، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع عنه اتِّباع الأهواء وإيثار الدنيا وطلب محمَدة الخَلقِ"(١).

وأمّا الأصول العِلميَّة التي يجب الاعتماد عليها في فهم النصوص الشرعية ودراستها:

أولاً: الاعتماد على منهَج الصحابة في الفَهم:

إذ للصحابة منزلة جليلة؛ فقد شرَّفهم الله -سبحانه وتعالى- وأعلى منزلتهم، ورفع قدرهم ودرجاتهم، وعدَّلهم من فوق سبع سموات؛ قال -سبحانه

(١) إعلام الموقعين (ج١ ص١٣٠).

وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١).

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "من كان منكم متأسيًا فليتأسَّ بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلَّها تكلُّفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصُحبة نبيه ﷺ فاعرِفوا لهم فضلهم، واتَّبعوا آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهُدى المستقيم"(٢).

مِن أجل هذا، فإن فَهم دلائل الكتاب والسنة إنما يؤخذ من الصحابة؛ ففيهم تكلم رسول الله ﷺ وعليهم نزل الكتاب، فهم أعلم الناس بمُراد الله ومراد رسوله، خاصة بعد أن كَثُرت البدع، وقَلَّ العِلم، وفسدت الفهوم، وهُجِرت السنَّة.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ قوله: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ**

(١) [التوبة: ١٠٠].

(٢) جامع بيان العلم وفضله (ج٢ ص٩٤٧).

بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1]، فمَن فسَّر الكتاب والحديث -كما يقول ابن تيمية- وتأوَّله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين، فهو مُفترٍ على الله، مُلحِد في آياته، مُحرِّف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام[2].

ثانياً: مَعرفة اللغة العربية.

لكي نفهم دلائل الكتاب والسنَّة على الوجه الصحيح؛ لا بد من معرفة لغة العرب التي نزل بها القرآن، والتي خاطب بها رسول الله ﷺ أصحابه؛ ولهذا تواتَر اعتِناء علماء الأمة وأئمتها بلغة القرآن حتى يوضَع خطاب الشارع في موضعه اللائق به شرعًا.

يقول ابن عبد البر رحمه الله: "ومما يُستعان به على فهم الحديث العلمُ بلسان العرب ومواقع كلامها وسعَة لغتها وأشعارها، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى الآفاق أن يتعلموا السنَّة والفرائض، وللحن يُغني النحو، كما يتعلم القرآن"[3].

---

(١) **صحيح**؛ صححه الألباني في "الصحيحة"(٢٧٣٥) وأخرجه أبو داود(٤٦٠٧) واللفظ له، والترمذي(٢٦٦٧)، وغيرهما.

(٢) الفتاوى (ج١٧ص٣٥٣).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (ج٢ ص١١٣٢).

ثالثا: جَمعُ النصوص الواردة في الباب الواحد:

تمثِّل النصوص الشرعية وحدةً واحدةً يُكمِّل بعضُها بعضًا، فلا تتَّضح المسألة حتى تستوفي جميع النصوص الواردة فيها، فالنصوص الثابتة تأتَلِف ولا تَختلِف؛ فكلها خرجَت مِن مشكاة، ولا يمكن أن يرد التناقض بينها أو الاختلاف، ولهذا فقد وصَف الله كتابه العزيز بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾(١).

إذا تقرَّر هذا؛ فإنه لا يجوز أن يؤخذ نصٌّ ويُترَك نصٌّ آخَر في الباب نفسه؛ لأن هذا يؤدي إلى تقطيع النصوص وبَترِها؛ قال - سبحانه وتعالى-: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾(٢).

يقول الإمام أحمد رحمه الله: "الحديث إذا لم تجمَع طرقه لم تفهمْه، والحديث يفسِّر بعضه بعضًا"(٣).

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: "إذا ميَّز العالم بين ما قاله الرسول ﷺ وما لم يقله، فإنه يحتاج أن يفهم مُراده ويفقَه ما قاله، ويَجمع بين الأحاديث ويضمَّ كل شكل إلى شَكلِه، فيجمع بين ما جمع الله ورسوله، ويُفرِّق بين ما فرَّق الله ورسوله،

---

(١) [فصلت: ٤١، ٤٢].

(٢) [البقرة: ٨٥].

(٣) الجامع لأخلاق الراوي (ج٩ ص٢١٢).

فهذا هو العلم الذي ينتفع به المسلمون، ويجب تلقِّيه وقبوله، وبه ساد أئمة المسلمين؛ كالأربعة وغيرهم -رضي الله عنهم أجمعين-"(١).

رابعا: معرفة مقاصد التشريع.

من فضل الله ورحمته لهذه الأمة أن شرع جميع الأحكام لمقاصد وغايات عظيمة مبنيَّة كلها على مصالح العباد في دنياهم وأخراهم؛ قال -سبحانه وتعالى-: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(٢).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومعرفة خير الخيرين وشرِّ الشرَّين؛ حتى يُقدَّم عند التزاحم خيرُ الخيرَين ويُدفَع شرُّ الشرَّين، وفوائد ذلك القدرة على الموازَنة بين المصالح وتقدير المصلحة، وتقديم ما يَجب تقديمه، والاجتهاد في النوازل"(٣).

---

(١) الفتاوى (ج٢٧ ص٣١٦).

(٢) [يونس: ٥٧].

(٣) إعلام الموقعين (ج٣ ص١٤).

فانظر رعاك الله هذا المنهج الرباني وتشبث به وإياك أن تحيد عنه فتضل؛ كمن قدّم العقل واتبع الهوى وتتبع الرخص[1].

أيها الأخ الصادق: وثمة شبهة أخرى يرددها بعض من انخرط في سلك المحرمات، قاصداً التحضر والمدنية، هادفاً لمنافسة الغرب أو الشرق بصناعاته، وهي: أن الزمن تغيّر ولابد من مواكبته وكثرة الترديد بأن هذا حلال وهذا حرام، يجعلنا في مؤخرة الصفوف والتخلف والرجعية، وأنا هنا لا أتحدث عن من انسلخ من دينه أو عقيدته وتشبع وانتهى لا ! أنا أتحدث عن المرحلة التي قبل هذه، يوم كانت النفس فيها من الخير الكثير، لكن ضغط الواقع المؤلم جعلها تتراجع عن الطاعة، وتلامس المحرم بكثرة، وتتغاضى عنه، فإذا هي تنتقل إلى مرحلة أخطر وهكذا... تحت مثل هذه الشبهة التي وافقت هوى!

ضعيف العقل والديانة لا حيلة معه أحياناً، والجاهل بالتاريخ كذلك ! حيث أنك تتكلم في مسألة فينقلك إلى مسألة أخرى لا علاقة للحديث بها، وإلا فما دخل صناعة الهاتف الذكي بوجوب الحجاب مثلاً، وما دخل صناعة الطائرة بتحريم الغناء الماجن!!، بل العكس صحيح فيوم كان المسلمون متمسكين بأحكام ونصوص شريعتهم، أصبحوا مركزاً لحضارة العالم، بكل بساطة لأن الشريعة تحث على العلم وترغب فيه، سأكتفي بشهادة لبعض الكتاب الغربيين لتثبت هذه القضية ..

---

(١) للتفصيل انظر: كتاب "منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة" الصويان (ص٢٩) وما بعدها، وكتاب "نحو استقامة فكرية" للصغيّر.

(جوستاف لوبون) كتب كتاباً أسماه حضارة العرب، الباب الخامس منه كلّه حديث عن حضارة المسلمين والعرب بالذات التي كانت تزخر بجميع المعارف والعلوم بشتى أنواعها ، وإن كان القارئ الواقعي المسلم يختلف معه في بعض جزئيات أسباب الانحطاط لكنه يتفق معه في إثبات تلك الوقائع التاريخية المزهرة، التي تؤصل النظرية الصادقة وهي أن ازدهار حضارة المسلمين بشكل عام هي بسبب تمسكهم بنصوص شريعتهم ..

أيها المبارك: متى ما كنت جاداً في تربية نفسك وروضتها فعلاً على تعظيم الحكم الشرعي والاستجابة والامتثال لله وللرسول صلى الله عليه سلم، فثق بأنَّك لن تلتفت لأي دعوات تخالفهما وإن كثرت، وأبشر بتوفيق ونجاح وفلاح، ولا شك أن هجر المنكر والبعد عن مواطنة من إنكاره، ولنتذكر دائماً مع الاضطرابات الفكرية، والمِحن التي تعصِف بالأمة، وتشتُّت الآراء، وضعف الامتثال، أن المخرج بإذن اللهّ الاعتصام بالكتاب والسنّة، وتحكيمها بصدق.

قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

(١) [آل عمران: ١٠٣].

الاعتصامُ بالكتاب والسنَّة: أعظمُ فرائض الإسلام، وأجلُّ أركانه، وبهما يتحقَّقُ للأمة النصر والتمكين في الأرض.

الاعتصامُ بحبل الله المتين: أمانٌ من الزيغ والضلال، ويجمعُ الأمةَ تحت لواء "لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله"، يُقوِّي اللُّحْمة، ويقتلُ الأطماع، ويُسقطُ الرايات الزائِفة، وبه نُواجِهُ مكرَ وكيدَ الأعداء.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**»(١).

وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه/

صغيّر بن محمد الصغيّر

١٤٤٠/١١/٢٥هـ

مكة المكرمة

---

(١) صحيح مسلم(١٧١٥).

هذا الكتاب منشور في